افتتاحية

إذا لم يكُنْ عَوْنٌ من الله لِلفتَى فأوَّلُ ما يَجْنِى عَلَيه اجـــتهَادُهُ

صدَّر المؤلف روايته « أولاد حارتنا » بمقدمة أسماها : « افتتاحية » وصاغها فى عبارات شديدة « الاختزال » ، وفى الجدول الآتى رصد لأهم ما ورد فيها من رموز مع الإشارة إلى معانيها حسب دلالات المقام عليها :

م	الرمز	معناه
١	الحارة :	الكرة الأرضية أو « الدنيا » .
٢	أولاد الحارة :	الإنس والملائكة ، والجن .
٣	الجبلاوى واعتزاله :	هو فى الرواية : « الله » سبحانه ، واعتزال الجبلاوى : رمز إلى توقف دور الدين ؟
٤	البيت الكبير :	الحضرة القدسية (١) .
٥	الوقف :	منهج الله فى إدارة شئون الحياة .
٦	الشروط العشرة :	الوصايا العشر فى أواخر سورة « الأنعام » .
٧	الخلاء :	الغيب أو ما وراء الطبيعة من أسرار .
٨	أدهم- جبل- رفاعة- قاسم	أسماء أو رموز أربعة رسل سيأتون .
٩	الحكايات :	التاريخ الدينى النبوى .
١٠	المقاهى :	مركز العلم والإعلام .
١١	شعراء الرباب :	الرواة والدعاة الدينيون .
١٢	الفتوات :	المتسلطون وذوو القهر .
١٣	النبابيت :	أدوات القمع والاضطهاد .

(١) تردد رمز البيت الكبير بين عدة معان فى الرواية منها : الجنة ، والوصف الجامع لها هو ما ذكرناه .

افتتاحية

الحارة : هى رمز للحياة الدنيا طولاً وعرضاً ، شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، عمقاً وارتفاعاً .

وأولاد الحارة : هم الناس جميعاً منذ خُلِق آدم وحواء مضافاً إليهم الملائكة والجن ؟

والجبلاوى : هو رمز الألوهية أو « الله » سبحانه عما يقولون ، واعتزال الجبلاوى رمز به الكاتب إلى توقف الرسالات السماوية بعد الإسلام ؟

أما البيت الكبير : فإن سياق الكلام - هنا - يدل على أن الكاتب أراد به « عرش الرحمن » وما فيه من أسرار قدسية وغيبيات لا يعلمها إلا الله ، وفى مواضع أُخرى رمز به المؤلف إلى « الجنة » أو « رحمة الله » .

والوقف : هو منهج الله فى الوجود ، المتمثل فى الدين الذى ارتضاه بما فيه من عقائد ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاق ، وأوامر ونواه تحكم حركة الحياة .

والشروط العشرة : هى الوصايا العشر الجامعة لأُسس الفضائل الواردة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ ، أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالوَالِدَينِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ، نَّحْنُ نَرزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ،

وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وإدارة الوقف : هى الاستخلاف فى الأرض ، لإدارة شئون الحياة - بعد الإيمان بالله ورُسُله واليوم الآخر - على هُدَى الله وما شرعه لعباده من شرائع .

أما أدهم وجبل ورفاعة وقاسم ، فهم : آدم وموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه .

والحكايات : هى التاريخ أو القصص الدينى النبوى (٢) .

والمقاهى : هى أماكن تجمعات الناس ، أو مراكز العلم والتعلم والإعلام .

وشعراء المقاهى : هم رواة التاريخ الدينى النبوى ، والقصاصون والدعاة إلى الدين ، أو هم حملة المعرفة الدينية بالذات ، الذين ينقلونها من جيل إلى جيل ، ويدخل فى ذلك كل وسائل التثقيف الدينى .

والفتوات : هم المتسلطون ، سواء كانوا حكاماً أو سدنة دين .

والنبابيت : هى آلات القمع وسياط الاضطهاد والتعذيب .

* *

● **الأدلة** :

نكتفى - هنا - بالتدليل على معانى ثلاثة رموز :

الأول - الحارة هى الدنيا :

الدليل الأول - الامتداد الزمانى :

عرفنا عند فك الرموز أن أدهم وجبلا ورفاعة وقاسما هم على الترتيب :

---

(١) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣

(٢) التاريخ الدينى نوعان : وضعى وهو العقائد البدائية ، ونبوى وهو قصص الأنبياء المقصود هنا .

آدم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً ﷺ ، وستأتى الأدلة القاطعة على صحة هذا الفهم ، وبين آدم وخاتم الرُّسُل دهور طويلة لا يحصيها عدداً إلا الله علام الغيوب . وهؤلاء لم يعيشوا فى حارة فى مصر ، سواء كانت حارة الجبلاوى أو حارة البحراوى ؟!

ولا يعرف أحد على التحديد أين هبط آدم ، ولا متى هبط من الجنة إلى الأرض . فالحارة فى رواية « أولاد حارتنا » هى الدنيا بأسرها .

الدليل الثانى - الامتداد المكانى :

الرُّسُل الأربعة الذين رمز إليهم مؤلف الرواية بـ : أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم عاشوا فى أماكن مختلفة فى الأرض ، منهم من عاش فى مصر وغيرها كموسى وعيسى ، ومنهم من لم تطأ قدمه أرض مصر ، وهما آدم أبو البَشر ، ومحمد خاتم الرُّسُل ، وهذا - بدوره - ينزع عن « الحارة » معناها الشديد الضيق ، ويضفى عليها معنى واسع المدى ، مترامى الأطراف ممتد الآفاق .

الدليل الثالث - الامتداد الموضوعى :

أشار المؤلف فى « افتتاحية » إلى طبيعة الموضوع الذى تفاعلت وتضاربت أصداؤه فى « الحارة » ، والصراع المرير بين أولادها ، وقيام البيت الكبير شامخاً فيها ، وإحاطة الخلاء به ، وترامى الصحراء حوله ، والحكايات التى تُحكى فيها ، واختلاف الرواة فى عرضها ، إما حسب الأهواء ، وإما حسب الانتماء الطائفى وتعاقب الأجيال بين ربوعها ، والحركات الصاخبة التى تموج فيها . إنه موضوع ضخم ومعقَّد ، لا تتسع له إلا الدنيا بأسرها ، لا حارة تَشْرَق وتختنق بعشرات من الناس يسيرون فيها ، أو عربتا « كارو » تقفان على جانبيها .

* *

● لماذا سمَّى الدنيا حارة ؟

أشرنا قبلاً إلى أن المؤلف كان واقعاً تحت سيطرة فكر قلق حين كتب هذه الرواية ، وأن أموراً كثيرة من قضايا الوجود كانت تضطرم فى « مخيلته » ، ولهذا فإن تسميته الدنيا حارة تسمية تتسق مع « الجو النفسى » للكاتب ، فإن بين الحارة والحيرة رحماً ماسة ، وكلتاهما تدلان على الارتباك والتشتت والاضطراب ، وهى - أى التسمية هذه - وليدة نظرة « تشاؤمية » إلى الحياة .

* *

● الرمز الثانى - أولاد الحارة هم الناس جميعاً :

الدليل الأول - آدم أبو البَشر :

بدأت الرحلة فى « أولاد حارتنا » من قبل أن يهبط آدم من الجنة ، ثم واصلت سيرها عبر التاريخ القديم وانتظمت أربعة رُسُل من ولد آدم بعثوا إلى الناس فى أزمنة وأمكنة جد مختلفة .

وحين انقطع الوحى بمبعث محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة ، فلما بلغها وقضى نحبه لم تكن البَشرية فى حاجة إلى رسول جديد لإكمال الدين كله بالإسلام ، وإعلان هذا الإكمال فى حجة الوداع فى العام العاشر الهجرى .

ثم مرت حتى تأليف « أولاد حارتنا » أكثر من ثلاثة عشر قرناً شهدت الدنيا فى أواخر هذه القرون مولد العلم الحديث وازدهاره وأنباء غزو الفضاء والتطور التكنولوچى فى كل مكان ، أتكون هذه الأحداث الضخمة قد ولدت فى حارة إذا وقف إنسان عند أحد طرفيها ، رآه من يقف على الطرف الآخر ؟

أوَ يكون أولاد هذه الحارة أولهم آدم أبو البَشر ، ومنهم هابيل وقابيل ثم الرُّسُل ، ثم رواد النهضة الحديثة . . ثم . . ثم ؟

هذا كلام له خبئ معناه ليست عقول .

أولاد الحارة - إذن - فى « أولاد حارتنا » هم الناس جميعاً فى أى مكان

وأى زمان وجدوا ، وليسوا هم أولاد حارة الجبلاوى ، ولا مصر ، ولا قارة أفريقيا أكبر تجمع عمرانى تنتمى إليه مصر ، أُم حارة الجبلاوى ؟ أو حارة نجيب محفوظ ؟

* *

الدليل الثانى - مصر أُم الدنيا :

الأستاذ نجيب محفوظ ، مهما اختلفنا معه حول هذه الرواية ، كاتب قدير بحق ، ومن أبرز خصائصه الأسلوبية إجادة فن « الرمز » ، وروايته هذه « أولاد حارتنا » شهادة بأُستاذيته ومهارته فى الأدب الرمزى الحديث .

والرمزيون يوظفون الرموز لمعانٍ خبيئة فى « جوانياتهم » ، ومحال أن يستعملوا رمزاً فارغاً أو ليس له « ظل » فى عالَمهم الداخلى .

وقد وردت فى « افتتاحية » عبارة تقول عن « الجبلاوى » :

« هو أصل حارتنا ، وحارتنا أصل مصر أُم الدنيا » (١) .

فهل - يا ترى - تُسلِّم بأن الكاتب الرمزى الكبير سطَّر هذه العبارة عبثاً أو لغواً خالياً من الدلالة الرمزية ؟ كلا ، فقد عودنا الكاتب بأن فى كل رمز له ، وإن كان لفظاً مفرداً ، معنى دفيناً تدل عليه من قريب ، أو تومئ إليه من بعيد .

وهذه العبارة بما فيها من تناسق تصاعدى ، تمثل هرماً مقلوباً : قاعدته « فوق » ، ورأسه « تحت » ، فالحارة أصل مصر ، ومصر أُم الدنيا .

هذه العبارة تومئ من طرف خفى بأن الكاتب أراد بها أن يقول : إنه لا يكتب عن « حارة » ، بل عن الدنيا زماناً ومكاناً وسكاناً ، تأمل كلامه

---

(١) « أولاد حارتنا » : ص ٥

تجده فخَّم من شأن « حارتنا » فجعلها أكبر من مصر « أصل مصر » ، ومصر هذه أُم الدنيا . فالحارة أُم الأُم ، وبعبارة رياضية :

إذا كان (أ) يعادل (جـ) ، و(جـ) يعادل (د) ، فإن الصلة بين (أ) رمز الحارة وبين (د) رمز الدنيا ، هى المساواة والتعادل .

ألا ترى المؤلف - هنا - أراد أن يخرج « حارتنا » من المفهوم الضيق المتبادر إلى الذهن ، إلى المفهوم الرمزى الممتد الشامل لكل معمور من الأرض ؟ وإلا فما الذى دعاه إلى هذه الرمزة الذكية ؟

فإذا كانت « حارتنا » تعادل الدنيا ، فإن أولادها هم أولاد الدنيا جميعاً . وهذا هو بغيتنا المنشودة من الدليل الثانى .

❊ ❊

الدليل الثالث - ولادة النزاع مع ولادة الحارة :

ومن خلال قراءتنا المتأنية الفاحصة لـ « افتتاحية » التى صدَّر بها المؤلف روايته « أولاد حارتنا » لفتت نظرنا عبارة قصيرة ، ولكنها شُحِنَتْ بمعنى رمزى اعتبرناه دليلاً ثالثاً على أن « حارتنا » هى الدنيا وأولادها جميع البَشر ، وربما دخل معهم الملائكة والشياطين [1] .

وإليك نصُّ العبارة :

« وُلِد النزاع فى حارتنا منذ ولدت ، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال ، حتى اليوم » [2] .

أتدرى ما هو ذلك النزاع الذى وُلِد مع الحارة منذ ولدت ؟

---

(١) فى الفصل الأول « أدهم » مثَّل الكاتب الملائكة بـ : جليل وعباس ورضوان ، ومثَّل الشياطين بـ « إدريس » ، وجعلهم من أولاد الحارة كما سيأتى بإذن الله .

(٢) « أولاد حارتنا » (٦) .

إنه النزاع الذى حدث من إبليس حين أبى السجود لآدم ، عاصياً ربه الذى أمره بالسجود .

ثم النزاع الذى نشب بين ولدى آدم قابيل وهابيل ، وانتهى بقتل هابيل على يد أخيه قابيل .

وهذا النزاع لم يكن غائباً عن ذهن الكاتب حين كتب هذه المقدمة « افتتاحية » بدليل أنه رمز إليه بنوعيه مرتين فى فصل « أدهم » كما سيأتى .

ولهذا نقول بكل اطمئنان : . . . « إن الحارة فى « أولاد حارتنا » هى الكون كله ، وإن أولادها هم البَشر جميعاً ، ثم الملائكة والشياطين .

* *

● الرمز الثالث - الجبلاوى :

أخطر رمز فى رواية « أولاد حارتنا » هو رمز « الجبلاوى » ، وقد ورد هذا الرمز أول مرة فى المقدمة « افتتاحية » ، ثم استمر وروده بلا توقف حتى آخر صفحة من صفحات الرواية البالغ عددها : ٥٥٢ صفحة ، وسوء سمعة هذه الرواية « أولاد حارتنا » فى الأوساط الدينية ، وفى الرأى العام العربى والإسلامى - فضلاً عن المصرى - يرجع بالدرجة الأولى إلى رمز « الجبلاوى » حيث رمز به المؤلف - سامحه الله - إلى معانى « الأُلوهية » أى « الله » تحس بهذا من اطلاعك على المقدمة « افتتاحية » ، وكلما مضيت فى القراءة زاد إحساسك بمعنى هذا الرمز الشيطانى الخطير ، وبخاصة فى الفصل الأول الذى أسماه « أدهم » إذا قرأت هذا الفصل أدركت - على سبيل اليقين الجازم - أن المؤلف لم يقصد بهذا الرمز سوى الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً . والعجب - كل العجب - أن أقلاماً انبرت للدفاع عن الأستاذ نجيب محفوظ ، وتدعى - زوراً وبهتاناً - أن الجبلاوى فى « أولاد حارتنا » ليس هو الله ؟! ويستندون فى دفاعهم هذا « الخائب » إلى أسباب أَوْهى من بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

وأقسم برب السموات والأرض ، وعالِم الغيب والشهادة لو أن مسلماً أقسم بالله أن الكاتب لم يقصد من « الجبلاوى » إلا الله ما حنث فى يمينه ، ولكان صادقاً كل الصدق .

أو أن آخر أقسم بالطلاق على هذا الفهم لما حرمت عليه قرينته .

أما أُولئك الزاعمون بأن « الجبلاوى » فى « أولاد حارتنا » ليس المقصود منه الله ، فلا يخلو حالهم من الاحتمالات الآتية :

- إما أنهم لم يقرأوا الرواية فراحوا يشهدون بما لا علم لهم به ؟
- وإما أنهم قرأوا ولم يفهموا .
- وإما أنهم قرأوا وفهموا ، ثم عاندوا وكابروا ، وراحوا يشهدون شهادة زور ، ويصرون على الحنث العظيم ، ويحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم .

وها نحن أولاء أمام هذه المكابرة ، وذلك العناد نستخرج من كلام المؤلف عشرات الأدلة التى تكشف زيفهم ، وتعرى مواقفهم وتسحق زورهم وبهتانهم ، وترد كيدهم فى نحورهم ، وتظهرهم على حقيقتهم أمام القُرَّاء مهما كانت مواقعهم وانتماءاتُهم (١) .

❊ ❊

- **الأدلة الواردة فى المقدمة :**

الدليل الأول - لغز من الألغاز :

قبل أسطر من ورود رمز « الجبلاوى » لأول مرة فى الرواية ، مهَّد له المؤلف برمز آخر هو « جَدُّنا » مقصوداً منه الله كذلك . قال المؤلف :

---

(١) سنكتفى - الآن - بإيراد الأدلة التى وردت فى مقدمة الرواية « افتتاحية » ، لأن الحديث - هنا - مقصور عليها . وفى أثناء حديثنا عن فصول الرواية الخمسة سنشير إلى كل دليل يتعلق برمز « الجبلاوى » الذى أريد به « الله » .

« وما أكثر المناسبات التى تدعو إلى ترديد الحكايات ، كلما ضاق أحد بحاله ، أو ناء بظلم أو سوء معاملة ، أشار إلى البيت الكبير . . . وقال فى حسرة :

« هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه . . » (١) .

فى هذا النص ثلاثة رموز :

البيت الكبير ، وهو مستودع الأسرار الإلَهية ، أو العرش .

و« جَدُّنا » ، وهذا الرمز جاء على تشبيه « الخالق » بوالد الأبناء ، فيكون معناه : خالق أبينا آدم .

والثالث : « من صلبه » أى : من خلقه وإيجاده ، فليس مراد الكاتب المعانى الحقيقية الظاهرة للألفاظ ، بل مراده معانى أُخرى تربطها بالمعانى الحقيقية الظاهرة أنماط من العلاقات ، مثل علاقة التشبيه التى أشرنا إليها الآن .

وبعد هذه الرمز التمهيدية ورد رمز « الجبلاوى » لأول مرة فى قول المؤلف :

« وجَدُّنا هذا لغز من الألغاز ، عُمِّر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور ، حتى ضُرب المثل بطول عمره ، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد ، فلم يره منذ اعتزاله أحد . . . على أى حال كان يُدْعَى الجبلاوى ، وباسمه سميت حارتنا ، وهو صاحب أوقافها ، وكل قائم فوق أرضها ، والأحكار المحيطة بها فى الخلاء » (٢) .

فى هذه الفقرة رمزان :

أحدهما ما أثبتناه فى العنوان « لغز من الألغاز » ، والثانى ما دعاه المؤلف بـ « اعتزال » الجد الذى هو الجبلاوى ، أما الرمز الأول « لغز » فهذا دليل أول على أن « الجبلاوى » فى « أولاد حارتنا » رمز الألوهية « الله » .

ذلك أن الله « ليس كمثله شىء » ، ولا تحيط به الفكرة ، هو فوق

---

(١) أولاد حارتنا ص ٥ (٢) أولاد حارتنا ص ٥ ، بتصرف بالحذف اليسير .

الظنون والأوهام ، هو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، هو الظاهر ، وهو الباطن .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .

هو الغنى القائم بنفسه ، فوق الزمان ، وفوق المكان ؛ لأنه كان قبل أن يخلق الزمان والمكان .

هذه المعانى - وغيرها كثير - هى المرموز لها بأنها « لغز » ؛ لأن طبيعة اللغز تقتضى التفكير العميق والحيرة والارتباك ؟ وقد كلَّف المؤلف نفسه شططاً ، وجنح به الخيال جنوحاً حين وصف « الجبلاوى » بأنه لغز ، وهو يرمز به إلى « الله » ، فالله يُعْرَف بآثاره وآلائه وآياته فى الكون ومن فيه ، وما فيه . أما ذاته العلية ، فالعقول - مهما بلغت من العبقرية والذكاء - أعجز ما يكون العجز عن إدراك كنهها ، والإحاطة بها ، وعلى أية حال ، فإن هذا الوصف « لغز » أول دليل فى المقدمة على أن المراد من رمز « الجبلاوى » هو « الله » جلَّ فى عُلاه .

* *

● **الاعتزال** :

هذا رمز ثان وصف به الكاتب « الجبلاوى » رمز الألوهية « الله » ، فقال : إنه اعتزل منذ عهدٍ بعيد ، والذى فهمناه من هذا الرمز أن المؤلف يقصد به انقطاع الوحى وتوقف الرسالات السماوية ، بعد أن جاء الإسلام حاملاً الكلمة الأخيرة لله فى توجيه الإنسانية جمعاء إلى ما فيه سعادتها فى الدنيا والآخرة :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ (٢) الأحزاب : ٤٠

أما قوله بعد ذلك :

« فلم يره أحد منذ اعتزاله » فقد رمز به لـ « عدم سماع كلام جديد له بعد توقف الرسالات ، مشبِّهاً السماع بالرؤية فى سياق نفى كل منهما ، ولم ندرج هذا الرمز والذى قبله فى قائمة الأدلة ، لأننا لا نعتبر إلا الأدلة الأصول ، أما ما كان من مدعيات المؤلف الخيالية ، فنكتفى بمجرد توضيحها للقارئ .

* *

الدليل الثانى - مالك الملك :

قال المؤلف يصف « الجبلاوى » رمز الألوهية : « **الله** » .

« وهو صاحب أوقافها ، وكل قائم فوق أرضها ، والأحكار المحيطة بها فى الخلاء » (١) .

سبق أن استدللنا على أن المراد من الحارة فى « **أولاد حارتنا** » هى الدنيا أو الوجود بأسره ، فإذا قال المؤلف بعد ذلك :

« وهو صاحب أوقافها ، وكل قائم فوق أرضها ... » كان معناه : « مالك الملك » ، ولن يكون صاحب هذا الوصف إلا **الله** .

* *

الدليل الثالث - كان الله ولم يكن معه غيره :

الله هو الأول بلا بداية ، القديم الذى لم يسبق وجوده عدم ، هذا المعنى أو هذه المعانى التى يؤمن بها المؤمنون الصحيحو الإيمان السليمو الاعتقاد فى الله ، أشار إليها مؤلف « أولاد حارتنا » ، فقال : « عاش فيها - أى فى الحارة - وحده ، وهى خلاء » (٢)

عبارته هذه تعنى أن « الحارة » هى الكون ، ولما كان رمز « الجبلاوى »

---

(١) أولاد حارتنا ص ٥ (٢) أولاد حارتنا ص : ٥ ، ٦

يعنى عند المؤلف « الله » كان معنى عبارته أن الله كان والكون خلاء ، ليس فيه سواه .

وهكذا تتضح حقيقة « الجبلاوى » فى الرواية ، طوراً بعد طور ويزيد المسألة وضوحاً هنا ، قوله واصفاً « الجبلاوى » :

« وكان بالضعفاء رحيماً » (١) .

❁ ❁

الدليل الرابع - ضلال بعض الطوائف فى الاعتقاد :

قال المؤلف : « ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته ، وهكذا حال الدنيا » (٢) .

الذى فهمناه من هذه العبارة فى وصف « الجبلاوى » رمز الألوهية « الله » عند المؤلف احتمالين :

أحدهما : الإشارة إلى العقائد الوضعية البدائية حول نشأة العقيدة فى الله ، مثل أديان الهند ، والفُرس ، واليونان القدماء ، وعقائد مصر فى عهد الفراعنة قبل عصر الرسالات ؛ لأن هذه العقائد كلها لم تصل إلى العقيدة المثلى فى الإيمان بالله ، وقد تكلم فيه أصحاب هذه النِّحل الوضعية بكلام لا يليق بقدره ومكانته ، كما قال المؤلف . وهذا الاحتمال هو الراجح عندنا ؛ لأن المؤلف يتحدث هنا عن عصر ما قبل الرسالات .

الثانى : أن يكون مراده الإشارة إلى الطوائف التى حرَّفَتْ حقيقة الرسالات التى جاءتهم بها رُسُلهم ، فهم - كأولئك - نسبوا إلى الله ما لا يليق به ، كنسبة الصاحبة والولد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وأياً كان مراده فإن هذه العبارة - على قصرها - دليل رابع على المراد

---

(١) أولاد حارتنا ص ٦ (٢) أولاد حارتنا ص ٦

بـ « الجبلاوى » الرمز إلى الأُلوهية « الله » ، لأن العبارة جزء من تاريخ الأديان ، وحلقة من حلقات نشأة العقيدة فى الله .

❊ ❊

الدليل الخامس - وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو :

هكذا وصف الله نفسه :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ . . ﴾ (١) .

﴿ عَالِمُ الغَيْبِ ، فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَداً ﴾ (٢) .

وهذه هى عقيدة المؤمنين : لا يَعْلَمُ الغيبَ إلا الله .

قارن هذا الوصف بما جاء فى قول المؤلف يصف « الجبلاوى » :

« أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق ، وأن نعيش نحن فى التراب » (٣) .

إذا أحسنت المقارنة والفهم تبيَّن لك فى الحال أن عبارة المؤلف تشير إلى استئثار الله بعلم الغيب ، يدلك على هذا وصف البيت الكبير - بيت الجبلاوى - بأنه مغلق ، موظفاً هذا الرمز « مغلق » فى الدلالة على الحيلولة بين الخلق وبين ما هو كائن فى علم الله ، كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ، وَلَا أعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إنَّكَ أنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ (٤) .

أليس هذا دليلاً من أقوى الأدلة على أن « الجبلاوى » فى « أولاد حارتنا » المراد به عند المؤلف هو « الله » سبحانه .

❊ ❊

---

(١) الأنعام : ٥٩ (٢) الجن : ٢٦

(٣) أولاد حارتنا ص ٦ (٤) المائدة : ١١٦

الدليل السادس - الرُّسُل أعلم الناس بالله :

أى نزاع ينشأ حول أُصول الدين أو فروعه ، فالفزع فيه إلى رُسُل الله ، وما أنزل إليهم من ربهم ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . . . ﴾ (١) .

احتفظ بهذه الحقيقة فى ذهنك ، ثم اقرأ ما قاله المؤلف فى هذه الفقرة :

« وإذا تساءلت عما صار به - يعنى الجبلاوى - وبنا إلى هذه الحال ، سمعت من فورك القصصى - أى الدينى النبوى - وترددت على أُذنيك أسماء : أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم . ولن تظفر بما يبل الصدر - لعله الصدى - أو يريح العقل » ؟! (٢) .

يقرر الكاتب - هنا - ما أشرنا إليه من فزع الناس إلى ما جاء به الرُّسُل إذا شب بينهم نزاع حول مسألة من أُصول الدين أو فروعه ، تضمن هذا قوله الذى نقلناه من سماع القصص أو ذكر ما جاء به الرُّسُل الذين رمز إليهم بـ « أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم : أى آدم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ؛ لأن هذه الرموز الأربعة تعنى الرُّسُل الأربعة ، المذكورين ، وسيأتى إشباع القول عنهم فى المباحث التالية .

فهذه الفقرة تفيد عدة حقائق :

فأولاً : أن المراد من « الجبلاوى » عند المؤلف هو الله ؟!

وثانياً : أن القصص الذى يُسمع عند التساؤل هو القصص الدينى النبوى .

---

(١) البقرة : ٢١٣

(٢) أولاد حارتنا ص ٦ ، وقوله : الصدر أظنه خطأ طباعياً ، وصوابه ما وضعناه بين الشرطتين .

وثالثاً : أن المعنى بـ « أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم هو : آدم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ » .

❁ ❁

● **تعليق** :

إن من المؤسف - حقاً - أن يقول المؤلف تعقيباً على الرجوع إلى ما جاء به الرُّسُل عند التنازع حول مسألة دينية : أصولية أو فرعية .

إن من المؤسف - حقاً - مرة أُخرى أن يقول المؤلف :

« ولن تظفر بما يبل الصدى ، أو يريح العقل » ؟!

فإذا كان وحى الله الحكيم إلى رُسُله الأمناء لا يشفى النفس ولا يقنع العقل ، فإلى أى شىء يفزع الناس بعد الله ؟!

﴿ أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوْقِنُونَ ﴾ (١) .

إن هذا القول لا يصدر إلا عن رجل لديه ريب فى « حقية » ما أنزل الله ، وما قضى به رُسُله . وظننا أن الكاتب ليس رقيق العقيدة إلى هذا الحد . ومع هذا « الظن » فإن قوله هذا يوقع فى الحيرة ، ويدعو إلى سوء الظن ؟

❁ ❁

● **الدليل السابع - اللجوء إلى الله فى الشدائد** :

من الأُمور المركوزة فى الطبع ، المتأصلة فى الفطرة الإنسانية الفزع إلى الله ، واللياذ به ، واللجوء إليه فى الشدائد والمحن حتى غير المؤمنين بالله إذا أفزعهم خطر ، نسوا كفرهم وجأروا إلى الله ليكشف كربهم ، ويزيح غمتهم هاتفين بلسان حالهم ومقالهم : يا رب .

---

(١) المائدة : ٥٠

مصداق هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (١) .

ومؤلف « أولاد حارتنا » يدرك أن مفزع الناس فى الكوارث والمحن إنما هو الله ، ترى ذلك واضحاً فى قوله :

« وما أكثر المناسبات التى تدعو إلى ترديد الحكايات - يعنى القصص الدينى النبوى - كلما ضاق أحد بحاله ، أو ناء بظلم ، أو سوء معاملة ، أشار إلى البيت الكبير . . وقال فى حسرة :

« هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه ؟ (٢) ، ونحن مستحقو أوقافه ، فلماذا نجوع ؟ وكيف نُضام » ؟ (٣) .

وقال : « ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ، ونقول فى حزن وحسرة : « هنا يقيم الجبلاوى ، صاحب الأوقاف ، هو الجد ، ونحن الأحفاد » (٤) .

أفليس فى كلام المؤلف - هنا - فى الموضعين أوصاف لا يوصف بها إلا الله قيوم السموات والأرض ، وليس الجبلاوى الذى لا وجود له إلا فى خيال المؤلف ؟

أما قوله : « هو الجد ، ونحن الأحفاد » ، فهذا لا يليق بـ : « الجبلاوى » باعتباره رمز الأُلوهية « الله » .

ولهذا القول - عندنا - محملان :

أولهما : أنه من الفر بعد الكر ، أو الإحجام بعد الإقدام ، ذكره المؤلف للتمويه والتشويش على القُرَّاء .

---

(١) النحل : ٥٢ (٢) لعله رمز إلى « من خلقه » لا صلبه حقيقة .

(٣) « أولاد حارتنا » ص ٥ (٤) « أولاد حارتنا » ص ٧

وثانيهما : أن يكون رمزاً مبنياً على التشبيه ، بأن جعل خالق الأب الأول - آدم - كأبى الأب ، ولا غرابة فى ذلك ؛ لأن التعبير الرمزى فى الرواية ، لا يكاد يخلو منه سطر من سطورها فضلاً عن صفحاتها .

❊ ❊

● الدليل الثامن - خالق الكون :

عرفنا - قبلاً - أن الأستاذ نجيب محفوظ رمز بالحارة إلى الوجود الكونى كله ، يؤكد هذا ما حكاه فى الرواية من البداية إلى النهاية ، فضلاً عن الأدلة التى ذكرناها من قبل .

إذا تقرر هذا فتأمل قوله فى وصف « الجبلاوى » رمز الأُلوهية فى الرواية :

« هو أصل حارتنا » (١) .

وما عليك إلا أن تفك الرمز « أصل » ، وتقف على المعنى المتوارى خلفه ، وهو « خالق حارتنا » أى خالق دنيانا ، ثم تضم هذا الدليل إلى الأدلة التى ذكرناها قبله ، فيصبح لديك ثمانية أدلة فى المقدمة وحدها على أن المراد من « الجبلاوى » فى « أولاد حارتنا » : هو الله سبحانه .

❊ ❊

● الدليل التاسع - عجز الفكر عن الإدراك :

قلنا من قبل : إن الله تعالى يُعْرَف بآثاره وآلائه وآياته فى الكون ومن فيه وما فيه :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥

فَأحيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ للَّهِ ، وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، آللهُ خيرٌ أمَّا يُشْرِكُونَ * أمَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أإلهٌ مَّعَ اللهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً ، وَجَعَلَ فِيهَا أَنْهَاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أإلهٌ مَّعَ اللهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ؟ أإلهٌ مَّعَ اللهِ ؟ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أإلهٌ مَّعَ اللهِ ؟ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أإلهٌ مَّعَ اللهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَابْتِغَاؤُكُم مِّنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ

---

(١) البقرة : ١٦٤ (٢) النمل : ٥٩ - ٦٤

خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ،. إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ * وَلَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُـمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

تأمل هذه الآيات جميعاً ، وسِرْ معها حيث سارت عُلُوّاً وسُفْلاً وعمقاً . وانظر كيف لفتت أنظارنا ، واستثارت وجداناتنا ومشاعرنا ، وأرشدت عقولنا ، وملأت قلوبنا إيماناً ويقيناً بالخالق البارئ العظيم .

وهذا هو منهج القرآن فى تنشئة الإيمان بالله ، ثم ترسيخه فى العقول والقلوب .

هذه الآيات ، وغيرها كثير ، فتحت أمامنا كتاب الكون كله لنقرأه فى صمت ، وفى تدبر ، يقرأه جميع الخلق الأُمى والمتعلم ، فالله قد يسَّر قراءته للناس جميعاً ، توخياً للهداية ، وتحقيقاً لأُصول الإيمان :

وهى - فى جملتها وتفصيلاتها - تدل دلالة قاطعة على أُصول الإيمان الأربعة الآتية :

١ - حصول الإيمان الإقناعى اليقينى بوجود الله .

٢ - تفرده بالعزة والسُّلْطان فى الكون (الوحدانية) .

٣ - وصفه بكل كمال لائق به .

٤ - تنزيهه عن كل نقص .

---

(١) الروم : ١٨ - ٢٧

بيد أن الأستاذ نجيب محفوظ قد أخطأ الطريق فى مجال معرفة الله ، فأدار ظهره للآثار والآلاء والآيات الكونية ، واكتفى بالنظر العقلى المجرد ليصل إلى كنه الذات العلية فعجز ولم يلوِ على شىء . وتلك هى عاقبة ومصير كل عقل لا يهتدى بالوحى ، ويظن أنه قادر - وحده - على إدراك حقيقة الذات الإلَهية العلية والإحاطة بها من كل الوجوه ، وكأنه عالِم طبيعى يضع يده على قطعة من المادة ، ثم يجرى عليها تجاربه فى المعمل ، ويراقب ويلاحظ ، ثم يدوِّن النتائج ، ويسجِّل القوانين ؟!

لكنه لما اعتمد على عقله المجرد ، كلَّ بصره ، وحار عقله ، ووجب قلبه ، ثم عاد إليه البصر وهو حسير .

فتعال : اسمع ماذا قال عن « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) : « وكنت - وما زلت - أجد الحديث عنه شائقاً لا يُمَلُّ ، وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة ، ولكن دون جدوى » (١) .

لقد رمز المؤلف بالطواف عن « التفكر » فى ذات الله المجيد وفى صفاته المقدَّسة ، راجياً أن يقف على حقيقتها أو بعض حقيقتها ، ولكن عاد بخفى حنين لا بحنين نفسه ، حيث تجاوز المتاح اليسير ، وهو معرفة الله بآياته فى الكون والنفس - إلى غير المتاح العسير ، وهو الإحاطة بحقيقة الذات العلية ؟!

أعرض عن الطريق المفتوح الممهَّد ، وقصد الطريق المسدود الموصد .

وما أكثر الفلاسفة الذين نهجوا من قبله نهجه فتفرقت بهم السبل ، وتقاذفت بهم الأمواج العاتية ، فى بحر لا تُرى شواطئه ، تشرق الشمس فيه وتغيب !

---

(١) أولاد حارتنا ص ٥

وأياً كانت تجربة المؤلف فى هذا المجال ، فإن اعترافه بعجز العقل عن تمام المعرفة فى « الجبلاوى » لدليل ذو خطر على أن المؤلف ما رمز بـ « الجبلاوى » لشىء إلا لقيوم السموات والأرض ، وإن كابر مكابرون ، وعاند معاندون ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

❊ ❊

● الدليل العاشر - غيب ما وراء الطبيعة :

ما وراء الطبيعة اصطلاح فلسفى يراد به العالَم المعنوى ، مما لا يدرك بأى حاسة من الحواس الخمس ، ويقابله العالَم الحسى المادى ، وهو ما له وجود يدرك بالحواس الخمس ، ويشغل حيزاً من الفراغ ، سواء كان حيواناً ، أو نباتاً ، أو جماداً .

ومن لطف الله بعباده أن جعل ما وراء الطبيعة من اختصاص الوحى الأمين ، وما صح من كلام الرُّسُل المكرمين .

أما المادة - بكل أنواعها وتشكيلاتها وخصائصها ، فقد أخضعها الله لسُلْطان العقل وسيطرته ، والرشد الإنسانى فى هذه الحياة رهن بعدم الخلط بين الاختصاصين ، فإذا عكسنا وأعملنا الوحى فى اختصاص العقل ، أو العقل فى اختصاص الوحى ، فتلك نكسة أو كارثة تختل معها مسيرتنا فى الحياة .

وليس معنى هذا أن العقل لا مجال ولا عمل له فيما وراء الطبيعة ، كلا . بل له مجال وعمل ، شريطة أن يهتدى بالوحى . فالوحى هو أُستاذ العقل ومرشده وهاديه فى مجال البحث والنظر فى مسائل ما وراء الطبيعة ، وفى مقدمتها حقائق الإيمان . وقد أدرك هذه الحقيقة بعض المحدثين من مفكرى

الغرب ، فشبهوا انفراد العقل فى معرفة ما وراء الطبيعة بإنسان يحاول أن يعبر محيطاً متلاطم الأمواج بواسطة « حُزمة من بوص » ، فهو لا شك هالك ؟

وشبهه آخرون بالبوصلة تشير إلى الحق ولكن لا توصل إليه ؟

وشبهه فريق بالهوام الطائرة ترى النار فتحسبها نافذة ، فتهم بالخروج من خلالها فتحترق فى الحين ، هذه تشبيهات جد صائبة لأُناس عرفوا العقل على حقيقته بعد طول فكر ونظر ، واعترفوا بعجزه فى مجال الغيوب إذا انفرد بالنظر فيها .

والأُستاذ نجيب محفوظ فى الفقرة التى نقلناها عنه من قبل اعترف أن تجاربه الفكرية حول معرفة ما وراء الحس قد فشلت وعجزت عن الوصول إلى أى شىء ؟

ثم عاد فكرر الإشارة إلى هذا العجز حين قال :

« وكم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحنَّط المركب أعلاه ؟ وكم جلست فى صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير ، فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت ، ونوافذ مغلقة لا تنم عن أثر الحياة » [1] ؟!

إن المؤلف - هنا - لا يصف إلا « الغيبيات » أو حقائق ما وراء الطبيعة .

وقد رمز إلى الجهل بها - مهما بُذل فيها من فكر - بالنوافذ المغلقة ، التى لا تنم عن أثر لحياة ، أى لوجود أى شىء خارج نطاق الحس :

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٦ ، ونلفت نظر القارئ إلى أن قوله : « وكم جلست فى صحراء المقطم . . . إلخ عبارات تمويه من باب الفر بعد الكر الذى يلجأ إليه المؤلف كثيراً ليشوش على القراء ويصرفهم عن مراده .

لا شيء يُرى ، ولا يُسْمع ، ولا يُلْمس ، ولا يُذاق ، ولا تُشم له رائحة ؟

إن فشل تجاربه الذهنية - كما اعترف - أمر محتوم ؛ لأنه لم يأت البيوت من أبوابها ، ولم يستعمل فى هذا المجال الأدوات الخاصة بالبحث فيه ، ولو كان أصغى إلى الوحى ، وأخضع له عقله وتجاربه لوصل إلى غايته من أقصر طريق . أما نحن فحسبنا من اعترافه بالعجز - هنا - دليلاً عاشراً على أنه لم يرمز بـ « الجبلاوى » إلا لله الكبير المتعال .

❊ ❊

• التمساح المحنط :

استوقفت نظرى هاتان الكلمتان المكونتان من موصوف « التمساح » وصفة « المحنط » ، والذى شد انتباهى نحوهما غرابتهما الظاهرة عن الموضوع الذى يكتب عنه المؤلف هذه الرواية « أولاد حارتنا » ، بخاصة المقام الذى وردتا فيه « وكم وقفت أمام بابه الضَّخم أرنو إلى التمساح المحنط المركب أعلاه » ؟!

الحديث - هنا - عن باب البيت الكبير الذى يقيم فيه « الجبلاوى » حسب ما جاء فى الرواية ، ففوق هذا الباب تمساح محنَّط جعل كاتب الرواية يقف أمامه طويلاً ينظر إليه ؟

وكم ساءلت نفسى عن وجود هذا التمساح أعلى الباب ، وعن الوصف الذى وصفه به المؤلف « المحنط » ؟

ولما عوَّدنا الكاتب أنه يختار رموزه بدقة ، ويوظفها فى الدلالة على معان كامنة فى نفسه ، لا فى المعانى الظاهرة منها ، لما كان الأمر كذلك أطلت النظر فى البحث عن معنى مناسب لاتجاهه العام فى الرواية .

وها أنذا أعرض ما توصلت إليه على القارئ ، لعله يوافقنى على ما فهمت ، أو يرى غير ما رأيت .

ولنصغ سؤالين ثم نجيب عليهما :

ما المراد للمؤلف من الموصوف والصفة ؟

ثم ما علاقة المراد له بباب بيت الجبلاوى الكبير ؟

أما عن السؤال الأول فنقول :

لا ريب أن التمساح مصدر إرهاب وفَتْك .

أما وصفه بـ « المحنَّط » فله احتمالان كل منهما سائغ ، فقد يكون المراد منه : القديم البالى الذى ذهبت بهجته ! وقد يكون المراد منه « الجمود والجفاف » !

وأما عن السؤال الثانى فنقول :

المؤلف أبدى رأيه من قبل فى « الجبلاوى » ، وفى ما جاء به أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم .

أما « الجبلاوى » وهو رمز الأُلوهية عنده ، فقد قال عنه المؤلف : إنه اعتزل لكبره منذ عهدٍ بعيد ؟!

وأما أدهم وجبل ورفاعة وقاسم ، وهم رموز لأربعة رُسُل - كما تقدم - فد قال : إن حكاياتهم - يعنى الوحى المنزل على كل منهم - إذا رُدِّدَت على الأسماع ، فلن تَبل الصدى ولن تُريح العقل ؟!

فبين هذه « القِيَم » الدينية وبين نزعة المؤلف الفكرية أو الفلسفية عداء مستحكم حين كتب هذه الرواية منذ أكثر من ثلاثين عاماً ؟

وهذا يوضح لنا علاقة وضع التمساح المحنَّط على باب البيت الكبير ؟! رامزاً بهذه العلاقة إلى أن « الفكر الدينى » أو « المعارف الدينية التى مصدرها الوحى الأمين » قديمة بالية ، أو جامدة جافة ، وأن إبداء الرأى الحر فيها قد

يؤدى بصاحبه إلى الهلاك ؛ لأن لهذه « القِيَم الدينية » حُرَّاساً غلاظاً شداداً لا يرحمون من خالفهم فى الرأى ، وهم فتوات يحملون النبابيت !

وليس فى هذا تحامل على المؤلف ، فإنه أبداه بكل وضوح بعد ذلك بأسطر حيث قال :

« حتى اعتاد الناس أن يشتروا السلامة بالأتاوة ، والأمن بالخضوع والمهانة ، ولاحقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة فى القول أو فى الفعل ، بل للخاطرة تخطر فيشى بها الوجه » (١) .

أفلست معى - أيها القارئ - فيما فهمته وأبديته حول « التمساح المحنط » ؟

والمؤلف لا يقصد ديناً معيناً فيما كتب حتى الآن ، وإنما يتحدث عن الدين بوجه عام ، والذى استمد منه هذه القسوة التى نسبها إلى الفكر الدينى ، أو المعارف الدينية فيما أرى ، تاريخ الصراع الدينى الكنسى فى أوروبا فى القرون الوسطى ، الكنيسة فى ذلك الوقت كبتت الحريات ، وسيطرت على مصير الشعوب ، وفتكت بالخارجين عن نظامها ، واستلبت أموال الناس ، واستخفت بعقولهم وإنسانيتهم ، وباعت لهم الجنة فى المزاد العلنى ، وغفرت ، وهى لا تملك - لمن دفع ثمن المغفرة . وعادت العلماء ، كما فعلت أقبح الجرائم فحرقت بعضهم وهم أحياء ؟ ، وما قصص « برونو » و« جاليليو » و« نيوتن » عن الأذهان ببعيد ، أضف إلى ذلك جرائم محاكم التفتيش ، وما جرى فيها من عجائب وغرائب ، راح ضحيتها ما لا يعلم حقيقته إلا الله علام الغيوب ؟

بيد أن الكاتب فاته شىء عظيم ، فسوَّى بين تاريخ جميع الأديان وأخذ البرئ بذنب الآثم .

وإذا كان فى ذهنه شىء عن الإسلام من هذه التهم ، التى أساغت له أن

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٧

يقول ما قال ، فإن شيئاً آخر مُهِماً قد فاته كذلك ، وهو التفرقة بين قِيَم الإسلام وشريعته العادلة الصريحة ، وبين ما فعله المنتمون إلى الإسلام من الجاهلين بأوامره ونواهيه ، فليس كل ما فعله حاكم مسلم هو الإسلام ، فما أكثر الذين أساءوا إلى الإسلام - قديماً وحديثاً - وهم - من جهلهم - يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أو لا يحسبون .

وإلى هنا نكون قد فرغنا من فك الرموز التى جاءت فى المقدمة « افتتاحية » فإلى الفصل الأول « أدهم » ننتقل الآن .